الحسناء

الجزء السادس — المجلد الاول

بيروت في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩

مسز برون

نبغ في انكلترا كثير من نخبة الفاضلات . واشتهر فيها فريق وافر من خيرة السيدات . فبلغت شهرتهن جميع العالم المتمدن . واقترن ذكرهن بالاحترام والاكرام . لانهن كن لبلادهن خيراً عميماً وللانسانية نصيرات مخلصات . اذ خدمنها جهدهن بما أوتين من الاهلية فطرة واكتساباً فنفعن قومهن نفعاً جزيلا وقمن بواجباتهن قياماً جميلاً نال بسببه مقاماً جليلاً واسماً نبيلاً . فضلاً عما تمتعن به من الملذات الروحية السامية والمسرات الادبية الراقية والفوائد الحسية والمعنوية

وقد اختلفت الامور التي خدمت بها تلك السيدات بلادهن فافدن بها الناس اختلافاً بيناً لا بدّ منه للعمران والارتقاء . وتنوعت وفقاً لحاجات الزمان والمكان . فمنهن الكاتبة والعالمة والخطيبة والشاعرة والمعلمة والواعظة ومنهن الطبيبة والحامية والممرضة والمحسنة والمكتشفة والمخترعة . وكل فئة عملت في سبيل الانسانية ما استطاعت لان الناس لا غنى لهم عن اعمال الجميع مهما كانت لا سيما اذا لامست النفس وامازجت الروح كالشعر مثلاً وخصوصاً اذا تناول

الحض على الفضائل واجتناب الرذائل فانه من افضل الوسائل لتهذيب الاخلاق وترقية النفوس والشعراء او الشاعرات من اقدر الناس على اثارة العواطف والتأثير في القلوب استجلاباً للخير او دفعاً للشر

ولا غرو اذا اهتمت الحسناء بسيرة شاعرة شهيرة لها فضل كبير ويد طولى في ترقية الآداب والفنون الانكليزية وبث روح الاقدام والوطنية والترغيب في عظائم الامور وصالح الاعمال ومناصرة الضعيف والبائس وتهذيب الاخلاق وترقية النفوس . نعني بها البصابات برت برَوْن ذات الشعر الرقيق المطرب المعدودة من شهر شعراء القرن التاسع عشر

ولدت هذه الشاعرة في لندن سنة ١٨٠٩ وبدت منها دلائل النجابة باكراً جداً فمالت الى العلوم من حداثتها ورغبت في الشعر مجاراة لميلها الطبيعي وقد بدأت بالنظم في الثامنة من عمرها وفي الحادية عشرة نظمت شعراً نفيساً وبعد اربع سنوات جادت قريحتها بابيات بديعة خلدت لها ذكراً حسناً . فاستحسن الناس اشعارها الا والدها وكان قرويا شريفاً يدعى المستر برت فانه لم يعجب بها كما يرجى منه فنصحه في اول مؤلفاتها بالتقشف ولعله كان يحون دون تقدمها في عالم الشعر لو اعتبرت ملاحظاته من قبيل تثبيط الهمة . وقد تولعت بمطالعة دواوين الشعراء السالفين وتمكنت بمساعدت معلمها بويد الاعمى من ان تستخرج كنوز معارف اشليس الشاعر اليوناني الذي وجدت في قصائده سحراً لا يماثله الا سحر قصائد الشاعر الانكليزي شكسبير وتعمقت بمعرفة اللغة اليونانية واداب اليونانيين ودرست بتدقيق مؤلفات الرواتيين الانكليزيين دون ان تهمل اللغة الانكليزية واثارها النامية من ايام الشاعر تشوسر الى عصرها التي بلغت من وفرة معرفتها بها وسعة اطلاعها عليها ان صار يراسلها اكابر العلماء والكتاب المعاصرين

لها بمواضيع مهمة برهنت على ذكائها واقتدارها وتأهلها بافضل المواهب والصفات المهيئة للسمو ورفعة الشأن . فاشتهر امرها وأعجب الناس بها لاسيما لانها كانت نحيفة البنية ناحلة الجسم ضعيفة الصحة فلما ينتظر من تكون في احوالها الجسدية ان تحوز بمقدارها على اخلاق حسنة وقوى عقلية عظيمة يزينها عواطف سامية وشعور عميق رقيق

وكان الضعف ساعدها على ترقية نفسها بتوسيع معارفها لانها بسببه لم تتمكن من الجولان والتنقل من مكان الى اخر فبقيت معتزلة عن الناس لاتعاشر الا العلماء وكتبهم فتستفيد عقلياً الا انها تتضرر جسدياً . وزاد في طين ضعفها بلة انفجار وريد في رئتها في الثامنة والعشرين من عمرها اقتضى له عناية دقيقة ومعالجة مديدة حتى دخلت في طور الشفاء وبقيت سنتين تتألم وتضجر وتزداد ضعفاً ونحولاً وما كادت تشفى حتى المّ بها مصاب اخر أثر في صحتها تأثيراً بالغاً وهو موت اخيها غرقاً فانكست وبقيت تتقلب على فراش الضعف وتجرع الآلام سبع سنين لا مساوة لها فيها الا الكتب فاستعاضت بالمطالعة عما فاتها من عشرة الناس وعكفت على اكتساب الفنون وجعلت جل اهتمامها بالشعر حتى خلدت اسمها وحفظت لها مقاماً وكرامة لا يزولان وهي تظن انها ستعيش كل حياتها طريحة الفراش

لكنها ما برحت بعد ذلك ان عاودتها صحتها فاقترنت بالمستر برون في السابعة والثلاثين من عمرها وكان اقترانها محفوفاً بالسعادة والغبطة فتوجها الى ايطاليا واقاما في فلورنسا حيث تملكت عاقبتها فقصدها نخبة الشرفاء والعظماء من محبي الاوطان والعلوم يباحثونها بامور مهمة قلما يجود بها غيرها من الجنس اللطيف وكان منزلها كنادٍ للمفكرين والمستنيرين الايطاليين فكانت تهتم بشؤونهم اهتماماً وافراً لما تراه من اهتمامهم بطلب الحرية والاستقلال وتنظر اليهم بعين نقادة وقلبها مشتمل

غيرة وحماسة فتجلس الى جانب النافذة تتأمل بالشعب الايطالي الساعي في التحرر من ربقة الظلم والاستبداد فتتخذ منه مواضيع لشعرها توضح بها مكنونات صدرها وما فيه من العواطف الشريفة والشعور السامي وقصيدتها المسماة نوافذ كازا كويدي تبرهن على ما كان يخالج فؤادها عند تلك المشاهد كما تدل على مقدرتها على الوصف والتعبير حتى عدّت لها من اسمى مظاهر العقل البشري ومن افضل قصائدها وان تكن قصيرة وصغيرة

نظرت مسز برونن الى احوال الناس بمجة ودراية فرأت الخلل متمكناً منهم في كل امورهم وهم بالحتياج الى الاصلاح والعمل بمقتضى الواجب فاتخذت خطة التحريض على الاقدام على الاعمال الصالحة العائدة بالنفع الجزيل على الافراد وعلى العموم ومدت يدها الى مساعدة البائسين والمظلومين الذين ذاسهم الساعون لاستجلاع ما في العالم من الغنى والمجد كأنهم خلقوا لها وخلقت لهم ووقفت حياتها على عمل الخير ونفع الناس بالفكر والقول والعمل

وتظهر اخلاقها الحسنة وسجاياها الحميدة بوضوح تام في منظوماتها ودواوينها العديدة المفيدة ولها في قصيدتها بكاء الاطفال اوضح دليل على حنو قلبها على الجنس البشري وهذا ما ترجمه منها الدكتور فياض الخطيب الشاعر

هل سمعت الاطفال يا صاح تبكي ... قبل ان تعرف الاسى والشقاء
كل طفل في حضن من ولدته ... يتعزى لو كان يرضى العزاء
العصافير في الرياض تغني ... وخراف الحقول تمعي معاء
وابتسام الازهار كل صباح ... بشذاها يعطر الارجاء
انما الطفل وحده يا صحابي ... بات يبكي ويستلذ البكاء
هل سألت الطفل الصغير لماذا ... راح يبكي ودهره ما اساء

بذرف الشيخ دمعه لزمان مرّ لو يومه الذي قد جاء
وغصون الاشجار تحزن اذ تخلع ايدي الخريف عنها الرداء
وجراح الابدان توْلم ان قصر طول الزمان عنها الشفاء
وقديم الرجا يضيمه الدهر فيمضي ولم نجدد رجاء
انما الطفل وحده لست تدري ما الذي في البكا له قد تراءى
هذه ادمع الصغار تنادي وقليل منا يجيب النداء
ارضكم ظلمة ونحن صغار ولنا ارجل تحاكي الهواء
ما مشينا عليك يا ارض الا خطوات وقد سفطنا عياء
فمتى نستريح والقبر عنا بعده قد غدا يطيل العناء
فلو الشيخ ما دعا لبكاه لاصغاراً في ارضهم غرباء
راحة القبر للشيوخ ولكن نحن جئنا هنا نقاسي البقاء

وقد امتاز شعرها بالروح الحية المنعشة . ولو ساوت قوتها الخيالية قوة الشعور لعدّت من اعلى طبقات الشعراء على ان مركزها كشاعرة متفق فيه وموهبتها الشاعرية بالغة الحدّ انما الاحوال التي توالت عليها منعتها من التقدم المأمول ومع ذلك فاقت في الشعر الغنائي على الشاعرين الانكليزيين كامبل وتيسون لاعتمادها على القلب وعواطفه لانه مركز الشعور والركن العظيم للشعراء . ولها في الشعر الروائي شأن يذكر . ومع عدم مساواتها تيسون ومؤلف (سوردلو) بعض القوى العقلية ساوتهما كليهما بغيرها من قوى العقل كما انها وان لم تفق اشهر مغني العصور السالفة لكنها اظهرت للعالم فاطبة انها امتلكت ناصية الشعر الساحر البديع وان تكن امرأة وزينت اللغة بجمال اسلوبها في الوصف والايضاح

قال بعضهم — قرأت مرة بعضاً من اشعارها فعدت نصف سكران

فعزمت ان لا اخذ مثل هذه الجرعة الشعرية مرة ثانية

فصائدها بوجه العموم متفاوتة في القيمة والفائدة فمنها ما هو خلو بعض المعاني البديعة ومنها ما هو مملوء من هذه المعاني مما يدل عَلَى مجاراتها الطبيعة في التقدم والارتقاء . والفرق عظيم بين قصيدتها اراه الولد في الله ونوافذ كازا كويدي وقد ابعت في اوائل نظمها النسق اليوناني وترجمت عن اليونانية عدت منظومات وروايتين . وفازت في القصائد الصغيرة فوزاً باهراً ومائلت الشاعر وردسورث وقصائدها المعبرة بها عن عواطفها وشعورها هي سلسلة مملوءة من المعاني الجميلة والحقائق الزاهية يرى بها المطالع عواطف القلب البشري المأسور بالحب الشديد . واساس شهرتها بل السبب الاعظم قصيدتها (اورورا لیك) وهي اطول قصيدة نظمتها وضمنتها افضل ارائها من الحياة فاستحسنها البعض وقرظها واستقبحها فريق وذمها . ومطالع قصائدها المتوسطة يشعر كأنه منفرد في غابة متسعة الارجاء والرياح الهابة والامطار الغزيرة الدليلان الوحيدان عَلَى وجود عالم اوسع واعظم محيط بتلك الغابة . ونعمقت بهذه القصائد الى درجة ابدت فيها مكنونات قلبها وشعورها الحاد وعواطفها الرقيقة

قالت مرة — يحتاج شعراؤنا الى ارواء نفوسهم من دم المخلص فيبتهون جميعهم ببشائر مفرحة للعالم المملوء حزناً وشقاء . تحتاج علومنا واداب لغتنا المينة الى لمسة من يد يسوع الناصري فتحيا . تحتاج الى ذلك لا الى غيره لان ذلك كان السبب الوحيد لترقية الهيئة الاجتماعية وازدياد العلوم ورفعة شأنها . ولقد رأينا شعراء اليونان المسيحيين قديماً ادركوا هذه الغاية وسعوا وراءها

واشغل هذا الامر فكرها فبحثت بجد عن علائق الله مع القلب البشري وكان من اخلاقها الثبات وعدم الاستسلام لليأس مهما اشكلت عليها الامور .